وسافر من هناك الى مدينة الكاب وجاء على تاريخها من حين اكتشفها البرتغاليون واحتلها الهولنديون سنة ١٦٥١ الى ان وقعت في يد الفرنسويين فالانكليز الى الآن. وفي هذا التاريخ على ايجازه عبرة وذكرى لمن يبحث في تاريخ البشر اذ يرى فيه ان ابناء هذا العصر لا يفرقون عن ابناء العصور السالفة في طلب الكسب بكل وسيلة ممكنة

وعاد من هناك الى اوربا بطريق الاوقيانوس الاتلنتيكي فمرّ بالرأس الاخضر وجزائر كناري ورست الباخرة في ميناء فونشال قاعدة جزيرة مديرا وقال في وصف هذه الجزيرة ان لها منظراً جميلاً من الباخرة فهي عبارة عن جنائن وحدائق وقد كانت للعرب وانتقلت منهم الى يد البرتغاليين واكثر اعمال السكان في فونشال التطريز وعمل النبيذ وزراعة الفاكهة والارض كلها مكسوة بالخضرة فلكل منزل حديقة سيان في ذلك غنيٌّ وفقير

وواضح من القليل الذي اقتطفناهُ من هذه الرحلة ان سمو الامير قصد ان يشرك قراء رحلته في فائدة ما شاهدهُ من غير ان يشاركوهُ في مشقة السفر. وحبذا لو وصف كل امرائنا رحلاتهم ونشروها كما فعل وقد بعث الينا سموهُ بصور بعض المشاهد التي شاهدها في هذه الرحلة فنشرنا ثلاثاً منها في هذه الخلاصة

عمر الخيام ورباعياته

— ١ —

تشرق الشمس فترسل أسلاكها الذهبية على بسيط الكون فلا تحدث برواتها وجمالها وصبوحها وضيائها الاّ بعد ان تغيب وتظهر الحاجة الماسّة الى النور ونقول فيما بيننا كوكب مضى وضياء خبا ولم نستفد منهُ واسفا !! . كذلك العظماء في هذا العالم وهذه الحياة الدنيا نشاهدهم بالعين فيبهرنا نورهم فلا نحدث في مصدر النور حتى يرقدوا في مرقد الابدية. وهنا نبحث ونجيد البحث ونهتك ستار الماضي ولكن هيهات ان نصل الى الحقيقة سالمة غير مشوبة بالنقص وقد تذهب الاحقاد بالقلوب المعاصرة لهؤلاء العظماء فتبخسهم حقهم وتقلّل من شأنهم وتدفن آراءهم وذكاءهم وسط هذا الميدان المملوء بالحسد والمزوج بالحقد . بهذه الطريقة تصل الينا اخبارهم مشوهة وقلّما تصل الينا في غفوة موتهم او بعد مفارقتهم الدنيا بقليل حتى نستقري مما كان حولهم ونستنتج مما كانوا فيه فنعرف صفحة من الخير الذي بلغهُ جيل هذا العظيم أو ذيّاك الفيلسوف

ولكن يأبى الزمن في كل تلك الحالات ألا ان يجر عليهم ذيل النسيان حيناً حتى تتعب في الحصول على حقيقتهم تعباً مشوباً بلذة وفوز

نعم في الحصول على حقيقة امثال هؤلاء العظماء تعب يستلزم جهداً مستطاعاً او غير مستطاع لان المصادر التاريخية وخصوصاً الشرقية منها تصل الينا خرائب واطلالاً فمن اراد حقيقة منها فعليه ان ينقب طويلاً ويحفر كثيراً

وعلى هذه القاعدة نريد ان نتعب قليلاً في البحث عن عمر الخيام ذلك الحكيم الفارسي الفيلسوف ونعرف ماهية هذا الرجل وهويتهُ ولا شك انك ستلذ كثيراً في استعراض صفحة من صفحات القرن السادس الهجري يوم كان في الشرق عظمة وارف ظلها يانع ثمرها أصلها ثابت وفرعها في السماء

مضى الكثيرون من الكاتبين والباحثين في الاعتقاد بان الخيام كان اسماً على مسمًّى فكان خيّاماً بالفعل كما يعزون ذلك الى كثيرين من شعراء الفرس كفريد الدين العطار ومحمد العطار وغيرهما والحقيقة انهم كانوا ينتسبون الى هذه المهن من جهة اجدادهم فذهبت لقباً عليهم وهذا شائع كثيراً في بلاد المشرق الى اليوم

ولعل اقدم المصادر التاريخية التي اعتمد عليها المؤرخون والباحثون عن شاعرنا هذا كتاب « المقالات الاربع » للاستاذ النظامي العروضي السمرقندي فلقد جاء في المقالة الثالثة ما تعريبهُ

« وفي ٥٠٦ هـ في مدينة « بلخ » اقيمت سوق حافلة للخاصة امام قصر الامير أبي سعد جره وقد نزلهُ الامام الخيام والامام مظفر الاسفزاري وكنت ملازماً لهما (المؤلف) فسمعت حجة الحق « الخيام » يتنبأ بموقع مرقدهِ الابدي في حضرة يكتنفها زهر الربيع واشجار الازهار. فلما كانت سنة ٥٣٠ هـ وبعد بضعة عشر عاماً من موت الفيلسوف توجهت الى « نيسابور » لأؤدي حقهُ بعد مماتهِ حيث لم يتوفر لي لقاؤهُ قبل نقلهِ الى الدار الاخرى وحيث كانت لهُ عليّ أياد بيضاء أقلها حق الاستاذ على تلميذهِ وكان ذلك يوم جمعة فاخذت هادياً الى مثواهُ ولم تلبث ان وصلنا الى مزار « الجرّه » وحوّلنا الى البستان فاذا هو رحمهُ الله ثاوٍ بين ربع يحيط بهِ من اربع جهاتهِ حديقة غناء وروضة فيحاء وتكتنفهُ غابة مكتوفة الفروع والاغصان طيّب شذاها معطرة رباها واذا قبرهُ رحمهُ الله ملتقى اوراق الاشجار واكمام الازهار

« هنا دارت بي الارض الفضاء وتذكرت نبوءتهُ الغريبة التي قصّها علينا في السوق في

بلخ وهناك سكبت دمعة على رجل كان فلك العالم الدوار ومعين فلسفته المدرار وواحد الدنيا ذكاء ومضاء وسرعة خاطر وفريداً في نظره البعيد لحوادث الكون وتقلبات الدهور»

ويقول هذا المؤلف في مكان آخر من كتابه ما نصه

«وفي شتاء سنة ٥٠٨ في بلدة مرو ارسل السلطان في طلب الاستاذ الاعظم صدر الدين محمد ابن المظفر رحمة الله ويرجوه ان يستحضر معه الخيام حتى يقضيا معه اياماً في الصيد الخ» ومن هاتين الكلمتين استنتجنا ان الخيام كان يعيش في ما بين سنة ٥٠٦ هـ و٥٠٨ هـ وانه قد رقد رقدته الطويلة في تراب نيسابور

ولقد سكت المؤرخون عنه بعد هذا المؤلف الجليل فلم يذكروه الا قليلاً. ألم تصلهم اشعاره وفلسفته ام كان ذلك تعمداً في السكوت عنه وعدم الاشادة بذكره. ولعل ما اسلفناه لك في بدء هذا القول هو الذي حدا بهم الى اغفاله، انظر الى كتاب محمد ابن عوفي وقد ذكر فيه كثيراً من شعراء الفرس وكتب كثيراً عنهم ثم لا تراه يشير الى هذا الفيلسوف الحكيم وجريمته في ذلك انه كان معاصراً له ؟؟ !

وترى السمرقندي لا يذكره في مذكراته وقد تصدر لذكر اغلب شعراء الفرس حتى أواخر القرن التاسع الهجري اللهم الا في ترجمة «شاهپور» الشاعر النيسابوري حيث يقول عنه «ينسب هذا الشاعر الى عمر الخيام» وتراه يذكر في الاسطر التالية في كتاب «اتشكده آذر» حيث يقول مؤلفه عمر الخيام كان يجالس السلطان سنجر على سرير واحد وكان زميلاً لنظام الملك ولحسن الصباح في مدرسة واحدة ومما يروى عن هؤلاء الثلاثة أنهم وهم في ساعة يؤمهم اشترطوا ان من ساعدته الاقدار منهم ووصل الى درجة سامية فعليه ان يأخذ بيد الآخرين

وقد وفى نظام الملك بهذا الشرط حينما اعتلى الوزارة لملكشاه السلجوقي فاضاف الى الحسن حسبة الدولة ولم يرض الخيام بالمناصب الحكومية وفضل أن يأخذ شيئاً من بيت المال يستعين به على ابحاثه الفلسفية وادارة معهده وحراثة ارضه

ويشك في هذه الرواية الاستاذ ادورد برون «Prof. E. G. Browne» استاذ اللغة العربية في جامعة كمبردج ويعتقد انه لو كان ميلاد نظام الملك سنة ٤٠٨ هـ كما هو مشهور وموت عمر الخيام حوالي سنة ٥١٧ هـ او سنة ٥١٨ هـ لوجد فرق شاسع بين الاثنين وفي اعتقاده ان مصاحبة عمر لنظام الملك أمر مشكوك فيه

ويقول حمد الله المستوفي في تاريخه « كزيده » في حق شاعرنا ما نصهُ

« هو عمر ابن ابراهيم وكان متضلعاً من كثير من الفنون وعلوم الفلك والنجوم على الاخص وكان ملازماً لملك شاه السلجوقي ولهُ رسائل جليلة المعاني واشعار في غاية الفصاحة ومن اشعارهِ

آمد سحرى ندا ز میخانهٔ ما كي رند خرابأتي دیوانهٔ ما
برخیز که پر کنیم پیمانه زمی زان پیش که پر کنند پیمانه ما

ويقول الاستاذ راهي في ترجمتها :

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر نادى من القبو غفاة البشر
هبو املأوا كاس الطلى قبل ان تنعم كاس العمر كف القدر

ويقول هدايت قليخان الذي كان يعيش قبل خمسين عاماً في مجلده الاول الموسوم بمجمع الفصحاء ان الخيام « كان حكيما سيء السمعة ظهر في زمان السلاجقة وكان معتمداً لدى السلطان سنجر ويقال انهما كانا في مكتب واحد وكانت وفاتهُ سنة ٥١٧ هـ ورباعياتهُ كلها نفائس وحكم ونفثات عاليات »

أما المستشرقون فقد وفوا الخيام حقهُ في البحث والنظر والانتقاد واولهم الاستاذ الروسي العلامة فالنتين يوكووسكي وكان متعمقاً في اللغة الفارسية عبقريًّا في النبوغ فيها شديد الشغف بآدابها وجمع منها غير قليل وترجمهُ الى الروسية وقد ترجم هذه المجموعة الى الانكليزية الاستاذ الدكتور دنسن رس مدير مدرسة الالسن الشرقية في لندن

يقول الاستاذ الروسي يوكووسكي في رباعيات الخيام ما نصهُ :

« يكفي في وصف شعر الخيام ان يقال في ناظمهِ انهُ فيلسوف الشعراء وشاعر فلاسفة الفرس كما كان المعري في شعراء العرب وقد تصرف في رباعياتهِ تصرفاً غريباً وسرح خياله في العالمين السفلي والعلوي فمثلها احسن تمثيل وحرص الناس على شعرهِ وأنا لا ابالغ في فضلهِ ولا اذكر شيئاً من محاسنهِ انما احيل القوم على ادباء الانكليز فقد عرفوا فضلهُ ومقدارهُ اكثر منا واقاموا الحفلات الكثيرة لذكرى هذا الشاعر الفيلسوف »

وقد ذهب الاستاذ الريحاني ان الخيام وابا العلاء كانا متعاصرين والحقيقة ان الاول كان متأخراً عن الثاني بمئات الاعوام انما هما متشابهان تمام الشبه في فلسفتهما

سيد مصطفى الطباطبائي